صاحب السيادة المتروبوليت أفرام الجزيل الاحترام،

أيها الآباء المحترمون،

حضرة مدير مدرسة مار إلياس التقنيّة،

الزمليات والزملاء الكرام،

الأولياء الأحبّاء،

أيها الخرّيجات والخرّيجون وأصدقاءُهم،

اسمحوا لي أوّلاً أن أشكر مدير المدرسة الزميل الأستاذ إلياس بيطار الذي أعطاني اليوم الفرصة لأتحدّث إليكم بمناسبة إنهاء بوطقة من المتعلّمين مرحلة من مراحل تحصيلهم، وهي مدماك في مسيرة عمر لا تنتهي فيه الدراسة، لكلّ من أدرك أنّ اقتناء العلم هو عمليّة لا تحدّها المقاعد الدراسيّة. مناسبة كهذه هي دومًا مناسبة تفكُّر يرتكز على فرح الخرّيجات والخرّيجين وأوليائهم للوقوف على ما هو أبعد من الحادثة، أكان ذلك من حيث الدراسة نفسها، أو من حيث أبعاد دورهم المجتمعيّ. لذلك، سأغتنم الفرصة لأدلو بدلوي في هذا المجال آملاً أن تصبح عمليّة التربية في وطننا شأنًا مجتمعيًّا وليس فقط شأنًا إداريًّا.

أيّها الأحباء،

أن نربّي يعني أن نجعل الإنسان ينمو ليحقّق ذاته كما أراده الله أن يكون، أي شريكًا في جعل العالم يتقدّم ويستفيد من هذه الخليقة باحترام كلّيّ لجمالاتها ووحدتها. أن نربي يعني أيضًا أن ندفع الإنسان ليصبح عضوًا فاعلاً في مجتمع لحمتُه الانفتاح، وقبول الآخر، والاستفادة من التنوّع. تجعلنا هذه الرؤية للتربية نتطلّع إلى أيّ اختصاص تأهيليّ بنظرة مغايرة عن ما نفعل اليوم. يأخذ أيّ اختصاص أهميّتَه من قدرته على بناء شخصيّة المتعلّم، وعلى تنمية مواهبه، وعلى إعطائه القدرة ليكون فاعلاً في مجتمعه. نحن نعيش في بلد خسر رؤيته التربويّة عندما ربط المهنة بقيمتها الإنتاجيّة الماليّة بدلًا من أن يربطها بموقعها الانتاجيّ مجتمعيًّا وإنسانيًّا. أنا لا أمانع طبعًا أن يتمّ تصحيح الأجور كي يتمكّن الإنسان من العيش الكريم. هذا أضعف الإيمان. لكن لا بدّ لي من أن ألاحظ أنّ المجتمع ككلّ يحصر قيمة المهنة بإنتاجها الماديّ، ولا يثمّن أهميّة العديد من المهن التي،

لولاها، لا تستقيم الحياة فيه. حتّى بعض التشريعات، في نصوصها أو في غياب لنصوص ضروريّة، تخلق هذا التباين الذي يؤثّر سلبًا على خيارات المتعلّمين وتوجهاتهم المستقبليّة.

ولأنّنا اليوم نحتفل بتخريج دفعة جديدة مِن مَن استوفى شروط النجاح في تأهيله التقانيّ، لنا أن نسأل الهيئات الرسميّة، وأن نسائلها، عن تخطيطها لإعطاء هذه المهن حقّها، وعن التحضير لمستلزماتها منذ صفوف التأهيل الأساسيّ. ماذا فعلت هذه الهيئات طوال عقود لتجعل من التأهيل على هذه المهن خيارًا صحّيًّا وصحيحًا، منذ السنة السابعة للتعليم الأساسيّ (cinquième) مثلاً؟ ماذا فعلت لتفتح الخيارات بعضها على بعض عوض أن تصدر تشريعات مُجْحِفة بحقّ هذه الاختصاصات؟ كيف ثمّنت أهمّيّة هذه الاختصاصات من حيث تصنيفها المهنيّ، ومكانتها في السلّم الوظيفيّ، وإمكانيّات تطوّرها العلميّ؟

صدرت في الآونة الأخيرة بعض التشريعات الجديدة التي تحسّن هذه الرؤية. لكن المشكلة لا تزال قائمة لأنّ أيَّ تغيير لم يطرأ على أسس الرؤية التربويّة في لبنان. لا يتعلّق الأمر بخرّيجي معهد كمعهدنا فقط بل يطال أيضًا عددًا كبيرًا من الاختصاصات الجامعيّة. فنرى اللبنانيّات واللبنانيّين يحملون شهاداتهم كجوازات سفر لبلدان تستطيع أن تثمّن قيمة هذا التأهيل. على سبيل المثال لا الحصر أذكر حملة إجازات التمريض، أو إجازات التربية، أو بعض الاختصاصات في الفنون الجميلة.

أيها الخرّيجات والخرّيجون،

أقول هذا أمامكم اليوم لأؤكّد لكم أنكم تحملون شهادات لها قيمتها العلميّة الجِدّيّة، ويحتاج إليها بلدنا البلد أكثر من أيّة شهادة أخرى من المستوى عينه. أنتم، بهذه الشهادات، عصب نهضة اليد العاملة المستنيرة القادرة أن تتفهّم تطوّر العلوم والحاجة إلى التأقلم السريع مع مستلزمات التقانة. أنتم، بما اكتسبتم من مهارات، ومخرجات تعلّميّة، تشكّلون نخبة شباب قادر على أن يرفد الوطن بطاقات حيّة توظّف فيه لمصلحة المجموعة ككلّ.

نصيحتي لكم أن لا تدعوا الهمّ الماليّ، على أهمّيّته، يُضْعِف همّتَكم العلميّة أو العمليّة. ثقوا بأنفسكم وأعلموا أنكم قادرون على أن تشقُّوا لأنفسكم طريق المستقبل بما اكتسبتم من مهارات لأنَّ المجتمع بحاجة إليكم. ظلمكم كثيرًا النظام التربويّ في لبنان. ظلمتكم أكثر التشريعات التي لا تزال تتحكّم بالرؤية إلى الإنسان في بلد سيطر عليه الفكر النفعي، لكن لا تظلموا لا أنفسكم ولا وطنكم.

كونوا في هذا البلد عامل تغيير فهو يستحقُّ ذلك.

كونوا في هذا الوطن الصورة المشرقة لإنسان لا تصنعه مهنته بل هو يعطي المهنة قيمتها.

كونوا سعاة بلورة لرؤية جديدة للمنطق المهني السليم.

قودوا مسيرات تبديل جذري في كلّ التشريعات المهنيّة فلا يدخل المهنة إلّا من تأهّل لها ليستحقَّ أن يكون هو الماهر في صنعته. نحن في بلد استرخص العلمَ، والفكرَ، والجَدِّيّة. قلّة التي هي تسأل كيف تصبح أستاذًا، أو نجّارًا، أو معلّم باطون! فلماذا يكون للمهندس والطبيب نقابات لا يدخلها إلا من تأهّل لذلك ولا ينطبق هذا الأمر على من نسلّمه أمر أولادنا، أو الطاقة الكهربائيّة في بيوتنا، أو السلامة الصحّيّة في أبنيتنا؟

قولوا للمسؤولين في هذا البلد إنّنا لا نريده مجرّد ملهىً ليليًّا ضخمًا، ومجمّع منتجعات بحريّة. قولوا له إنّنا نريد أن نعيد للحِرَف قيمتها، وللمهن موقعها، وللعلم احترامه.

لا يغرّكم مال، مهما كثر، فهو سيبقى في هذه الأرض ويفنى معها ولن يأخذ أحد منّا شيئًا منه عندما سيلاقي ربّه. لكن إنْ أبدع كلّ منكم في اختصاصه فسيبقى اسمه جيلاً بعد جيل! أعطيكم مثلاً من هذه المؤسّسة التي تتخرّجون منها. مَن منكم لا يعرف اسم مكاريوس موسى؟ كلّ الميناء تذكره. ماذا فعل؟ كان مربّيًا بسيطًا في أدائه، كبيرًا في قلبه فرفع البساطة إلى المستوى الإنسانيّ الذي جعله ثابتًا في ذاكرة أترابه. ويمكنني أن أسمّي لكم عددًا كبيرًا من أفراد مثله برعوا في مهنتهم وصناعتهم فأصبحوا مضرب مثل للماهيّة الإنسانيّة التي هي خصوصيّة مجتمعنا المشرقي.

أخيرًا وليس آخرًا، خذوا من الحداثةِ التقانةَ التي تخدم إنسانكم، وعفّوا عن تقانات لا يعرف الغرب اليوم كيف يتراجع عنها لأنها مزّقت نسيجه المجتمعي. واكبِوا الحداثة بروح علميّة إنسانيّة وليس بروح التبعيّة. تبنّوا موقف المبدع واستزيدوا علمًا، فتعيدوا للبنان مكانته في العالم كلؤلؤة أخرجها بحر الميناء إلى العالم.

والسلام.